

البوليفونية اللسانية:

قراءة أسلوبية جديدة في رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج.

د. مرزوق محمد

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي لباس-سيدي بلعباس

يرفض باختين أطاريح الأسلوبية التقليدية المتصورة داخل مُعطى التعبير الفردي، ويقترح أسلوبية تفاعلية جديدة تقوم على إبراز دور الآخر خلال عملية التبادل اللفظي *L'échange verbale*، بوصفه شراكة بين المتكلم والمستمع. وتطبيقا لهذه الرؤية سنحاول مقارنة نص "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج من خلال إخضاعه لقراءة أسلوبية جديدة تجعل من الرواية فضاءا تبرز فيه أنماط شتى من الأساليب البوليفونية. يعدّ مشروع باختين ونظريته الحوارية تحاذا للسانيات الكلاسيكية وما نتج عنها من درس بنيوي وأسلوبية تقليدي. ذلك أنّه رفض التوجّه الذي تعاملت به مع اللسان بوصفه نسقا لغويا مغلقا ومُصوّنا، فراحَت تُخضّعه إلى مقاييس العلوم التجريدية حين قارنته من خلال استنطاق جزئه المادي واختزلته في مواده وبنائه اللسانية (التركيبية والصوتية فقط). فتقوّعت نتيجةً لذلك هذه المقاربات داخل حدود الجملة الواحدة، مُفصّبة آفاق النص الخارجية وغير مكترثة بمقاصده بدعوى أنّه ليست لتلك التوايا أية تمظهرات شكلية على مستوى النص.

من أجل ذلك جاءت صرخة باختين داعيةً إلى ضرورة التعامل مع اللسان من خلال حركيته وبعده التواصلي، ضمن مقارنة سوسيو. لسانية. إذ ينطلق باختين من مبدأ جوهرية يقوم على أنّه لا يوجد تعبير (كلام) غير مرتبط بعلاقات جوهرية مع تعبيرات أخرى، مُتدّة عبر استخدامات سابقة ولاحقة بوصفها ملافيظ (نصوصا) لمستخدمين سابقين ولاحقين. ومن ثمة ضرورة تبني علم جديد أسماه باختين بعبر. اللسانيات يهدف إلى تجاوز المجال اللساني المغلق إلى مجال أرحب يُنظر فيه إلى الكلام (النص) بوصفه مُشكّلا من موادّ لسانية وأخرى خارج لسانية، تتنفس جميعها داخل شبكة مرتبطة عبر سلسلة نصية، تُوطّرها عملية التبادل اللفظي.

وتاليا يؤكد باختين على طبيعة الكلام الاجتماعية، إذ وبالرغم من وصفه إنجازا فرديا لا يفتأ باختين يذكر بأنّ "الكلمة" هي الحلبة التي تتواجه فيها كلّ النغمات accents الاجتماعية المتعارضة، لأنّه يرى بأنّ الكلام محرّك التحوّلات اللسانية لا ينفكّ يرتبط بشروط التواصل المقترنة بالبنيات الاجتماعية ضمن إطار عام يتغذى من تصوّر حوارية يغدو معه اللسان (في صورة النص والخطاب) مكتسبًا بجلباب الحوارية التي تعني بحسب باختين: كافّة أشكال حضور الآخر داخل خطاب الأنا. وهو ما لا يتأتّى إلا من خلال مسار تفاعلي بين وعين، وعي فردي ووعي آخر، وعي مُستلهم ووعي مستلهم.

تقوم إذن المقاربة عبر. اللسانية على تصوّر يفترض إطارا اجتماعيا لعملية التواصل اللفظي، ذلك أنّ "الولادة الحقيقية للسان تكمن في الحدث الاجتماعي الذي يُحيّن في التبادل اللفظي، ويجد نفسه مُحققًا في عدّة ملفوظات"¹. وهو ما يجعل من مسألة فهم الملفوظ (الكلام) مرهونة بفهم بنيته اللسانية مع ضرورة ربطها ببنية تشكّله عبر. اللسانية.

يمكن فهم انتقادات باختين لكلٍ من اللسانيات الكلاسيكية والأسلوبية التقليدية ضمن جهوده النظرية بوصفها محاولةً مبكرةً وجادة² تروم فتح آفاق النص بهدف الكشف عن بنيته وحدوده وأسلوبه، كنسيج لغويٍّ معقد.

إنّ نظرة باختين للنصّ (الكلام) بما هو فعلٌ حيٌّ وسط حركيّة تفاعليّة يغدو معها مرتبطًا بما قبله ومتعلّقًا بما بعده من النصّوص. فلا يمتلك هذا التعبير (الكلام) حينها سوى أن يأخذ في حساباته. أثناء عملية التلقّظ. حضور الآخر المستمع. وهو ما أغفلته الأسلوبية التقليدية (بوصفها وريثة اللسانيات الكلاسيكية) حين تعاملت مع محتوى التعبير بوصفه مادةً بحث معبّرة عن ملفوظ المتكلّم فقط، دون أدنى اعتبار لتأثير الآخر (المستمع) على هذا التعبير ذاته.

كما يرفض باختين ما نرعت إليه الأسلوبية التقليدية. التي عاصرها. من اهتمام بدراسة التناغمات الفردية Les harmoniques individuelles للكلام مغفلةً دراسة رئاته ses tonalités الاجتماعية الجوهرية. فصارت تلك الأسلوبية. في نظر باختين. أسلوبيةً تجريديّة، تقدّم نفسها كأسلوبيةً فنّ داخل حدود حجرة، مقصيةً الحياة الاجتماعية للفعل verbe الموجود خارج حجرة الفنّان، ووسط الآفاق الرحبة للحياة. وانتهيت بذلك إلى تجاهل "الكلام الحيّ" مكثفياً بمدرسة مقاطع استولوجية منه histologiques، من خلال إخضاعها لهذا الفعل المجرد الطّيع خدمةً لكفاءة الفنّان المبدع.³

وتاليا ينظر باختين إلى الكلام بوصفه أسلوباً فردياً معطراً بعبق كلمات /آخر ويرنّ بصداه، ذلك أنّه يرفض التعامل مع المستمع كشيء ثابت، لا استجابة له. فالمخاطب (المستمع) شريكٌ في عملية التواصل، لأنّ المتكلّم فاعلٌ واعٍ بردود أفعال المستمع (من حركات وإيماءات وتلميحات) وبما تمثله من فهمٍ وجواب وردود يكيّف بموجبها كلامه وأسلوبه بحسب هذه الاستجابة، مُدركاً هذا البعد الحواريّ لخطابه نتيجةً للحوارية التي تتمّ بينهما أثناء عملية التّبادل اللفظي.

نخلص من ذلك إلى أنّ طرح باختين بضرورة مقارنة أسلوبية للملفوظ من خلال افتراض إطار اجتماعيٍّ لعملية التواصل اللفظي، لا بدّ أن يستوفي البحث عن أسئلة أساسية تتعلّق بتعيين الجهة التي يتوجّه إليها الكلام، وتحديد قوّة تأثير المستمع (المتلقّي) على كلام المخاطب. وغيرها من الأسئلة التي استنكفت الأسلوبية التقليدية الإجابة عنها أو الاهتمام بها، ما جعلها عرضةً لانتقادات باختين، الذي يؤكّد بأن كلّ تحليل أسلوبيّ يظلّ فقيراً إذا هو لم يُحيط بكليّة الخطاب التي لا تتحقّق إلّا داخل عملية التّبادل اللفظي. وحينها يمكن لهذا التحليل الأسلوبيّ الإلمام بكلّ مظاهر أسلوب الملفوظ بوصفه عنصراً⁴ داخل هذه العملية.

غير أنّ باختين يرفض كذلك أن يتمّ التعاطي مع مسألة التعبير وفقاً لحدود رؤية أسلوبية واحدة، وذلك حين يصرّ على أصالة أسلوبية لجنس الرواية. من ذلك ما نستشفّه من قوله: "لم يظهر حتّى القرن العشرين طرح واحد بقضايا أسلوبية الرواية، ينطلق من الاعتراف بالأصالة الأسلوبية للكلمة الروائية، الكلمة الثريّة الفنيّة، إذ ظلّت الرواية ردحا طويلاً من الزّمن موضع دراسة إيديولوجيّة مجرّدة، وتقويم اجتماعيّ دعائيّ فقط. في حين أنّ المسائل التي تشخص أسلوبيتها مهمة إهمالاً تاماً، أو تدرس عرضاً، وبدون مبدئية"⁵.

ذلك هو واقع حال الرواية كجنس أدبيّ نثريّ في ظلّ مقولات تقليدية للأسلوبية التي وإن حاولت تدارك الفروق بين ما هو شعريّ وما هو نثريّ، إلّا أنّها ظلّت مفتقرةً لـ "الكلّ الأسلوبيّ للرواية، والكلمة الروائية"⁶. وهو ما حاول باختين استدراكه على الأسلوبية التقليدية حين ركّز على التنوّع الكلاميّ في الرواية، التي توصف بأنّها أكثر الأجناس الأدبيّة، استقبالا لأنماط لسانية متعدّدة

تعكس تعدّد الأساليب التعبيرية وتنوّع اللهجات الاجتماعية والإقليمية واختلاف الرطانات المهنية تبعاً لتباين⁷ الفروق الطبقيّة والمهنيّة والجغرافيّة والدينيّة، فتخضع في ذلك لقوانين أسلوبية مختلفة.

وحيث يروم باختين إيجاد مجال تطبيقيّ يبلور فيه نظريته الحوارية قصد إبراز الطابع الغيريّ للإبداع والتّواصل نلغيه⁸ ينطلق من النصّ الروائيّ بوصفه مجالا أتاح له دحض أطاريح كلّ من الشكلاّتين والأسلوبيين (التقليديّين كما ينعتهم)، فينتهي بعد دراسته للأعمال الروائيّة لدوستوفيسكي إلى عدّه مبتدع الرواية البوليفونيّة. ذلك أنّ هذا الروائيّ قد جعل من نصوصه ميدانا يتّسع لبروز أصوات سرديّة متنوّعة قادرة على التعبير عن وجهات نظرها المختلفة، دونما أن تخضع لتوجيه أو تأثير أو هيمنة سلطة الراوي العليم. وتاليا يرى باختين أنّ الرواية البوليفونيّة بوصفها شكلا سرديّا جديدا، تقوم على التقيّض تماماً من الرواية التقليديّة التي يراها. وإن حذت نحو توظيف كمّ من الأصوات الروائيّة المتعدّدة والموهمة بتعارضها. تظلّ تنتمي إلى خطّ أسلوبيّ ينهض على أحاديّة وعي لسانيّ، مركّز على نمط تعبيريّ فرديّ، يُنظر خلاله إلى أسلوب الرواية بمعايير جماليّة أو شعريّة تهدف إلى تأكيد فرديّة المبدع وعبقريّته. إذ أنّ باختين يرى بأنّ أسلوب الرواية (البوليفونيّة) ينبغي أن يقوم على تباين أصوات فرديّة، وتنوّع كلاميّ منظمّ اجتماعيّاً وفنّيّاً⁹ بفضل ارتباط وحداته بشحنة حوارية مشكّلة لأهمّ الخصائص الأساسيّة للأسلوبية الروائيّة.

تقوم الرواية البوليفونيّة على وحدة أسلوبية كبرى تُعضّدها أنماط تأليفية¹⁰ يعمد الكاتب البوليفونيّ إلى توظيفها داخل متنه الروائيّ، من مثل السرد الأدبيّ الفنّي المباشر الذي ينجزه المؤلّف، والأسلبة stylisation التي يلجأ إليها حين يروم توظيف أشكال (كلام الآخر) السرد الحياتيّ المختلفة، وغيرها من الأنماط التأليفية المستقلّة نسبياً، والتي تُكرّس التنوّع الكلاميّ للرواية داخل الوحدة الأسلوبية الكبرى حين يتنازل الروائيّ (البوليفونيّ) عن سلطة الأسلوب التعبيريّ الواحد لصالح تعدّدية لسانيّة وأسلوبية، دون أن يحاول جمع شتات الأصوات المتنافرة أو توحيد أسلوب تعبيرها، فلا يصبح أسلوب الرواية هو أسلوب كاتبها بل يصبح أسلوب الرواية هو أسلوب الشّخص الروائيّ أنفسهم.

وتاليا يمكن فهم مشروع باختين حين نادى بضرورة قيام علم جديد دعاه بعبر . اللسانيّات، الذي تُوكّل له مهمّة دراسة "الكلمة" (الأسلوبية) دراسة سوسيو. اجتماعيّة تُنظر إلى الرواية بوصفها نسقا لسانيّاً مفتوحاً وحيّاً يتحرّك ضمن سياق استعماليّ تفاعليّ داخل سلسلة التّبادل اللفظيّ، بأنّه تجاوزّ لدراسة التعبير من حيث هو بناءً تركيبيّ وصرّيّ ونحويّ فقط، معزول عن الصّيرورة التاريخيّة لحياة "الكلمة"، مثل ما ارتأتها المقاربات الأسلوبية التقليديّة حين تعاملت مع محتوى الملافيظ بعدّها تعبيراً عن معيّ يمتلكه المخاطب، مغفلةً أيّ دور لآخر.

من أجل ذلك راح باختين يقدّم تصوّراً عاماً (لسانيّاً وأسلوبياً) للرواية البوليفونيّة، يقوم على عدد من المقوّمات على شكل مقولات أساسية موجزة في العناصر التأليفية التالية:

"التعدّد اللسانيّ والتعدّد الأسلوبيّ"، والذي تحكمه مظهرات وأشكال خاصّة تخضع لها عمليّة الصّوغ الحواريّ، بوصفه برمجّة لهذا التنوّع داخل جنس الرواية. ويتجلّى ذلك في التّهجين والتنضيد وتعلّق اللّغات القائمة على الحوار، أين نجد من أبرز مظاهر هذا التعلّق: "الأسلبة والتنوّيع والباروديا"، دون أن ننسى ذكر الحوارات الخالصة والأجناس المتخلّلة وأقوال الشّخص.

وقبل مباشرة دراستنا الأسلوبية في ضوء البوليفونية اللسانية حلّي بنا أن نذكّر هنا بأن الاختيار المنهجي للبوليفونية اللسانية كمنهج مقارنة، والذي أُنْبا من خلاله إبراز ملامح التلاقي بين اللسانيات وبين الدراسة الأدبية، تُسيّغه مسألة أن الأسلوبية كما ارتأها مؤسسها الأول في الوضع الفرنسي الحديث شارل بالي تُعدُّ فرعاً من أفنان شجرة اللسانيات.

من أجل ذلك سنحاول عدم الفصل بين التّحديد النظريّ الموحز للأنماط التّأليفية المستخدمة (مقولات التّعدّد اللّسانيّ والأسلوبيّ) في عملية الصّوغ الحواريّ La Dialogisation، أثناء مقارنتنا لنصّ رواية "كتاب الأمير" بوصفها متناً لهذه الدّراسة. ونحن حين نحاول التّوقّف عند أهمّ أشكال التّعدّد اللّسانيّ والأسلوبيّ في رواية "كتاب الأمير" لـ *لوسيني/الأعرج*، نؤكّد أنّ ألفيناه يعبّر عن وعي كبير بضرورة توظيف أنماط تآليفية متنوّعة. ذلك أنّ هذه الرواية حين تجمع بين شخوص متباعدة في أديانها وأوطانها وألسنتها ومراتبها الاجتماعية والفكرية، فهي تروم أن تخلق بفضل هذا التّعدّد في الانتماء تعدّداً ألسنياً وأسلوبياً.

فإذا كانت الحوارية الخطابية المبنية للمجهول حسب تحديدات باختين تقوم على مبدأ عامّ يرتبط إثره كلام المتكلّم في علاقة حوارية مع كلام الآخر (سابقاً كان أو لاحقاً)، فإنّ الحوارية اللسانية تعني عنده كافّة أشكال حضور كلام الآخر داخل خطاب المتكلّم. وفقاً لهذا الطّرح يتنازل الروائيّ عن سلطة¹¹ الأسلوب التّعبيريّ الواحد فاسحاً المجال أمام تعدّد لسانيّ وأسلوبيّ، من شأنه أن يساعد على خلق صورة اللّغة¹² حين يرتبط بتعدّد الشّخص الروائيّة وتصادم وجهات نظرها حول العالم.

ونحن إذ نؤمن بأنّ أفضل طريقة للقبض على طبيعة هذا التّعدّد اللّسانيّ مُثلاً في تجلّياته الأسلوبية تكمن في محاول رصد أشكال هذه التّجلّيات، مستنيرين برأي باختين حين يرى بأننا عندما نتكلّم فنحن نتموّل داخل لسان مشترك، متخّم بميراث لسان الآخر¹³ وقد تسرّبت فيه كلماته مسجّلة استعماله الفردية. وبذلك يرسّخ باختين مبدأ الحوارية الخطابية. غير أنّه يرى كذلك أنّ الحوارية الحقيقية (الحوارية اللسانية) تتحقّق حين تغلغل في خطاب الذات المتكلّمة خطابات الغير المتعدّدة، وهو ما توفّرها الرواية البوليفونية من خلال نمط التّعدّد اللّسانيّ وأسلوبيّ السّارد الرئيس، حين تتجلّى عبر مقولات التّهجين، وتعالق اللّغات القائم على الأسلبة الروائية والتنوّع والباروديا.

فإذا ما أُنْبا التّوقف عند التّهجين، بوصفه مظهراً أسلوبياً يحصل حين يلتقي وعيان منفصلان عن طريق مزج أسلوبين تعبيريّين اجتماعيّين داخل ساحة ملفوظ واحد.¹⁴ وقد يقوم المتكلّم بهذا المزج بطريقة قصديّة واعية، فنكون حينها بصدد التّوظيف الأدبيّ المقصود. كما قد يحصل هذا المزج بطريقة لاإرادية ولاواعية، ويحدث ذلك غالباً ليدلّ على إحدى الصّيغ الهامة للوجود التاريخيّ ولصيرورة الألسن.

حين يعرض باختين للتّهجين يتحدّث حينها عن نقل خطاب الآخر داخل خطاب الذات المتكلّمة عن طريق إحدى الصّيغ الأسلوبية (الأسلوب المباشر، الأسلوب غير المباشر والأسلوب غير المباشر الحر). فيعدّ الصّيغة الأولى (الخطاب المنقول على صيغة الأسلوب المباشر) في كليّتها مونولوجيّة، لأنّ صوت الجهة السّاردة يظلّ غير ممتزج بصوت الجهة المسرودة لكون الخطاب المنقول هنا يظلّ معزولاً بشكل واضح بواسطة علامات التنصيص. ويعدّ الصّيغة الثانية (الخطاب المنقول على صيغة الأسلوب غير المباشر) في كليّتها ديالوجيّة (حواريّة)، لأنّها تتوفّر على شرط امتزاج الصّوتين. أثناء عملية نقل الخطاب. مثل ما خلص إلى ذلك أ. ديكر¹⁵ Oswald Dicrot الذي جعل من تنافس صوتين داخل فعل كلاميّ واحد حدّاً فاصلاً بين الحوارية والمونولوجية. ويكون هذا الأسلوب منقولاً بواسطة فعل يعبّر عن فعل كلاميّ آخر، إذ يكون في العادة متبوعاً بأداة ربط، من مثل (يقول بأنّه..، تشير إلى

أنه... الخ..). فيغدو كلام الآخر حينها غير منقول بدقة. وتالياً يمكن تعريفه¹⁶ بالنظر إلى أنه منقول بصيغة الغائب، فلا يكون مسبقاً بعلامات التنصيص، مثل قولنا: طَلَبَ منه أن يُعَرِّبَ عن وجهه.

فيما يُعَدُّ باحتين الصيغة الثالثة (الخطاب المنقول على صيغة الأسلوب غير المباشر الحر) فيُعَدُّ أكثر هجنةً (وتالياً أكثر بوليفونيةً)، لأنه في هذه الحالة يكون الأمر أقرب إلى ترجمةٍ محتوية الفعل الكلامي منه إلى نقل خطاب الآخر. وبتعبير آخر، فإن الأقوال المنقولة (بأسلوب الخطاب غير المباشر الحر) يمكنها أن تكون أقلّ أو أكثر أمانةً، دون أن نكون أبداً متأكّدين إذا كانت هذه الأخيرة مسجّلةً بكلّ دقّة، أو أنّها خضعت لتأويلٍ من قبل الجهة الساردة، بسبب ما لحقها من ضرورات التعديل أثناء نقل خطاب الآخر على صيغة الأسلوب غير المباشر.¹⁷

وللتمثيل على ذلك سنتجاوز عرض صيغة نقل الخطاب على شكل الأسلوب المباشر لكونها ذات بنية مونولوجية، مكتفين بالتوقّف عند الصيغتين الأسلوبيتين الأخرتين، اللتين تتحلّى فيهما قصديّة التّهجين. مبتدئين بصيغة الأسلوب غير المباشر، ومستشهدين للتدليل عليه بالملفوظ التالي من الرواية، وهو نصّ مراسلة الأمير عبد القادر بعد مبايعته، مخاطباً به زعماء قبائل البلاد وشيوخها وعلماءها.

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده.

إلى الشيوخ والعلماء واليكم يا رجال القبائل، وخاصة فرسان السيف والأعيان والتجار وأهل العلم، السلام عليكم. ووفقكم الله وسدّد خطاكم وجمع شملكم، وحقق لكم النجاح ويسّر لكم الخير في جميع أفعالكم، وبعد.

فإنّ أهل مناطق معسكر واغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتّحد بهم، وبني شقران وعبّاس، والبرجيّة واليعقوبيّة، وبني عامر وبني مهاجر، وغيرهم ممّن لم تردّ أسماؤهم قد أجمعوا على مبايعتي أميراً عليهم وعاهدوني على السّمع والطّاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله. وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، وإزالة النزاع والخصام من بينهم، وتأمين السّبل ومنع الأعمال المنافية للشّريعة المطهّرة، وحماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا. وكشرط لقبولي فرضت على أولئك الذين عهدوا إليّ بالسلطنة العليا واجب الامتثال دائماً في جميع أعمالهم إلى تعاليم الشّريعة المقدّسة وكتاب الله، وأن يقيموا العدل على هدي سيرة رسوله بأمانة وتجرّد على القويّ والضعيف، والشّريف والمشروف، وقد ارتضوا بهذا الشرط.

أدعوكم إذن لتحضروا إلينا، لتقدّموا بيعتكم وتظهروا طاعتكم، ووفقكم الله وأرشاكم في الدنيا والآخرة. إنّ هدي الأسمى أن أحقق ما فيه الصّلاح والخير، واتّكالي على الله، فمنه وحده أنتظر الثّواب والفلاح.

حرّر بأمر من ناصر الدّين، السّلطان وأمير المؤمنين عبد القادر بن محي الدّين، أدام الله عزّه وحقق نصره، أمين، بتاريخ الثالث من رجب 1248 الموافق لـ: 27 نوفمبر 1832.¹⁸

يمثّل هذا الملفوظ، حسب ما توحى إليه مؤشّراته التّحويّة والتّوليفيّة، خطاباً منسوباً إلى الأمير عبد القادر بعد مبايعته، موجّهاً لأعيان البلاد وعلمائها، إذ يبدو من خلال التّحليل اللّسانيّ للتّلفّظ أنّ الأمير هو المسؤول عن هذا الكلام بوصفه "متكلّماً"، وتالياً يبدو هذا الخطاب من بنية مونولوجيّة لا وجود. ظاهريّاً. لتنازع الأصوات فيه. غير أنّ القراءة البوليفونية لنصّ هذا الملفوظ تخلص إلى غير هذه النّتيجة، حين تنظر إلى الأمير عبد القادر بوصفه هنا القائم بالسّرد، فيعمد إلى نقل خطاب الآخر

داخل خطابه، مستعملاً صيغة الأسلوب غير المباشر. فيغدو. تاليا. هذا الخطاب معبراً عن امتزاج ملفوظين وطريقتين في الكلام وأسلوبين ومنظورين دلاليين واجتماعيين، لا تفصل بينهما أية حدود شكلية (ظاهرة) من وجهة نظر التوليف أو التركيب.

من أجل ذلك لا يمكن أن نعدّ السارد (الأمير) مسؤولاً لوحده عن نصّ هذا الملفوظ وذلك لاعتبارين على الأقل. أمّا أول الاعتبارين، فيتمثّل في أنّ الأمير بوصفه متكّلاً هنا، لا يمكننا أن نعدّه مسؤولاً عن كلّ وجهات النظر والمواقف الواردة في نصّ هذا الملفوظ¹⁹، لأنّ الأمير "المتكلم" حين يقول: "قد أجمعوا على مبايعتي أميراً"، فهو يعبر عن رأي غير رأيه حين ينقل وجهة نظر قوم بايعوه على الإمارة، من خلال نقله لخطابهم على صيغة الأسلوب غير المباشر.

وما ينطبق من كلام على ملفوظ: "قد أجمعوا على مبايعتي أميراً" ينطبق أيضاً على "وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله".

في حين أنّ الملفوظ التالي "وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه"، يمكن نسبته للأمير بوصفه "متكّلاً" و"متلفظاً صاحب وجهة النظر والموقف" في ذات الحين.

وتالياً يمكننا القول بأنّ مثل هذه الملافيظ (حين تلجأ إلى نقل خطاب الآخر. باستعمال ضمير الغائب. داخل ساحة ملفوظها نقلاً غير مباشر، يتمّ خلاله التمازج بين صوت الجهة الساردة (الناقلة) والجهة المسرودة لها (المنقول عنها) تعبر الملافيظ. عن "التّهجين القصديّ" بوصفه شكلاً بارزاً من أشكال التعدّد اللسانيّ، يعبر عن هجنة أدبيّة قصديّة يتوارى خلفها وعيان لسانيان يعبر عنهما أسلوب أدبيّ راقٍ.

ثمّ نثني بصيغة الأسلوب غير المباشر الحرّ، الذي يميّز عن سابقه بأنّه مُوغلٌ في نقل الخطاب نقلاً غير حرّفيّ، إذ نكاد لا نعرّح حينها على فعل كلاميّ يوحى بالإشارة إلى أنّنا بصدد الخطاب المنقول. فيكون حينها هذا التّقلّ أقرب إلى ترجمة نوايا الآخر وأفكاره المبطنّة، وليس نقلاً لخطابه المنطوق.

فنخلّص عندئذٍ إلى أنّ صوت الهيئة الساردة يغدو ترجمةً لسريّة الهيئة المسرودة، ليندمج الصّوتان معاً بشكل كليّ فيغدو السارد حينها "نفيداً impermeable" ومختزقاً بالنسبة لأسلوب شخصوه الروائيّين. وللتّمثيل على ذلك نستشهد بالملفوظ التالي:

جاء الأمير إلى وهران وفي رأسه إعادة حصار المدينة وإغلاق كلّ منافذها، حتّى انصياح دوميّشال لكلّ شروطه".²⁰

يبدو من خلال المؤشّرات النّحويّة لهذا الملفوظ أنّه ينتمي إلى خطاب السارد، الذي يتولّى بنفسه هنا نقل خطاب شخصيّة الروائيّة. فيعمد واسيني/الأعرج إلى تنويع الأسلوب الكلاميّ لروايته من خلال استعماله أسلوب التّهجين، إذ يغدو أسلوبه مختزقاً بشكل جليّ من طرف خطاب شخصيّة الأمير.

ويظهر التّهجين بشكل كبير حين يتجاوز الروائيّ نقل خطاب شخصوه إلى نقله لأفكارهم وترجمته لنواياهم. وذلك حين يريد تصوير شخصيّة الأمير عبد القادر العسكريّة وحنكته الاستراتيجيّة التي مكّنته من فرض منطقته ومجاهاته لغطرسة الآلة الحربيّة لجيش الاحتلال الفرنسيّ، إثر تغلّبه عليه في مواقع كثيرة وتضييقه لخنق الحصار على قوّات الجنرال دوميّشال.

وفي حالة الملفوظ الذي بين أيدينا يبدو هذا الخطاب من خلال وجهة النظر اللسانية منسوبا إلى السارد (الروائي) بوصفه متكلمًا. إلا أنّ التحليل البوليفوني يرى بأنّ وجهة النظر التي يحملها هذا الملفوظ لا يمكن نسبتها إلى السارد المتكلم، ذلك أنّ هذا الملفوظ يعبر عن خطاب منقول بصيغة الأسلوب غير المباشر "الحرّ".

وتاليا يتيح مثل هذا الأسلوب للروائي تلوين أسلوب الرواية وتنويعه، فيغدو بواسطتها هذا التّهجين دليلا على انفكاك عرى الارتباط بين السارد وبين أسلوب الكتابة من جهة، وشاهدا على خلق مسافة جمالية بين إمكانات اللسان وأساليب الكلام من جهة أخرى. ذلك ما نستشفّه من خلال ما توحى به عبارة " وفي رأسه " التي لا تتحمّل تأويلا غير كونها تفيد أنّ (السارد) لا ينقل خطاب شخصية الأمير، بل ينقل ما تفكر فيه، وما تعزّم فعله من تضيقٍ للحصار على جيش الغزاة الفرنسيين داخل مدينة وهران من جهة، وبُغية إخضاع الجنرال دوميشال لشروط الأمير من جهة أخرى.

وكأنّا بولسيني /الأعرج هنا قد تجاوز نقل منطوق خطاب الأمير، عن طريق الصيغة التقليدية لنقل الخطاب غير المباشر، فلجأ إلى مزج الصوتين مزجا عميقا يتغلغل إلى حدّ نقل هذا الخطاب نقلا يترجم الأفكار الداخلية لشخصية الأمير وينطق بلسان نواياها المبطنة.

وتاليا يغدو أسلوب الرواية هو أسلوب شخصوها الروائيين (المتكلمين أسلوبيا)، ليتحقّق للرواية البوليفونية مبدأ تعدّدها اللسانيّ عن طريق تعدّد الأنماط الأسلوبية، بوصفها خطأ أسلوبيا خاصا يمثل هذا النوع من الروايات.

وإذا ما ألبنا التوقف عند التنضيد، بوصفه وجها من وجود تعدّد الأساليب التعبيرية في نصّ رواية "كتاب الأمير"، فإنّا ننظر إليه كطبقات منصّدة من طبقات اللسان تُشكّل كلّ طبقة جنسا خطابيا معيّنا، وحين يستعمل الروائي كلمات اللسان التي تخضع لمبدأ التعدّد يستعين حينها بصور مختلفة لهذا التنضيد.

فلا يجد قارئ رواية كتاب الأمير كبير عناءٍ ليلاحظ ذلك الكمّ من الإشباع التنضيديّ المعبر عن التعدّد الطبقيّ في أسلوب كلام الشخصيات الروائية. إذ يمكن تمييز نوعين من هذا التنضيد داخل هذه الرواية، جريا على أسلوب الكتابة الذي يستخدمه الروائي.

يتمثّل النوع الأوّل في استعمال لسان أجنبيّ عن لسان كتابة الرواية. وذلك حين يلجأ الروائي إلى توظيف اللسان الفرنسيّ نطقًا على لسان الشخص الروائيّة على اختلاف طبقاتها الاجتماعية. ويمثّل توظيف الروائيّ للأساليب المنصّدة للشخص الروائيّة وفق لسان كتابة الرواية الأصليّ (العربيّة)، نوعا ثانيا من هذا الإشباع التنضيديّ.

الهوامش :

1. Bakhtine/ Voloshinov, La structure de l'énoncé, In. T. Todorov : Mikhaïl Bakhtine : Le principe dialogique, suivi de : Ecrit du cercle de Bakhtine, Paris, Edition du Seuil, 1981, p.288.
2. M. Yaguello, Introduction, In : Bakhtine/Voloshinov, Le Marxisme et La Philosophie du langage, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les éditions de Minuit, 1977, p.12.
3. M. Bakhtine, Esthétique et théorie du roman. Trad. Par, Michel. Aucouturier, Paris, Gallimard, 1978, p.85.

4. Bakhtine/Voloshinov, Le Marxisme et La Philosophie du langage, Op.cit., p.298.
5. م. باختين، الكلمة في الرواية، تر. يوسف حلاق، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1988، ص8.
6. م. باختين، الكلمة في الرواية، م س، صص8-9.
7. ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
8. ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر. محمد بريدة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2009، ص1، ص26.
9. ينظر: م. باختين، الكلمة في الرواية، م س، ص12.
10. ينظر: المرجع السابق، ص10.
11. ينظر: محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، من باختين إلى ما بعد باختين، دار أمل للنشر والتوزيع، تونس، د.ط، 2012، ص33.
12. ينظر: ميخائيل باختين، تر. محمد بريدة، م س، ص112.
13. Discours Indirect, Discours Direct et Leur Variantes, In. Mikhaïl Bakhtine, (V.N.Volochinov), Le Marxisme Et La philosophie du langage, Op.cit., pp.161-172.
14. ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، م س، ص108.
15. O. Ducrot, Le dire et le dit, Paris, les éditions de minuit, 1984, pp.171-172.
16. ينظر: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، ناشرون دار النهار للنشر، ط1، بيروت، 2002، ص89.
17. M. Bakhtine, (V.N.Volochinov), Le Marxisme et La philosophie du langage, Op.cit., p.178.
18. رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ط2005، صص89-90.
19. O. Ducrot et al. Les Mots du discours, Editions de Minuit, 1981.Chapitre.1.
20. رواية كتاب الأمير، ص112.